٣ ـ المجنـــون

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

وكنا فى النّدىّ ثلاثةً : أنا و ا . ش و س . ع ؛ وقد هيّأت تدبيراً تَواطَأْنا عليه لتحريك هذين المجنونين وتدوين ما يجيء منهما . فلما أقبلا تحفّينا بهما وألْطَفْنَاهما ، وقمنا ثلاثتُنا ببسطهما وإكرامهما ، حتى حسبا أن فى كلمة « مجنون » معنى كلمة أمير أو أميرة . . . . . ورأيتُ فى عينىّ « نابغة القرن العشرين » ـ وهو أعْيَنُ أعْجَلُ [1] ـ ما لو ترجمتُه لما كانت العبارةُ عنه إلا أنه يعتقد أن له نفساً أنثى أعشقها أنا .... فكان مُسَدَّدا فكّةَ اللسانِ تُسْتَمْلَحُ له النادرةُ وتُستظرفُ منه الحركة

ولما تمكن منه الغرور واحتاج الجنونُ كما يحتاج الجمالُ إلى كبريائه إذا حاطته الأعيُن ـ أدار بصره فى المكان ثم قال : أفٍّ لكم ولما تصبرون عليه من هذا الندىّ فى فضوله ورعاعه وغوغائه . إن هؤلاء إلا أخلاطٌ وأوشابٌ وحُثالة . هذا الجالسُ هناك . هذا الواقف هنالك . هذا المستوفز . هذان المتقابلان . هؤلاء المتجمّعون . هذا كله خيالُ حقيقة فى رأسى . ما هى ؟ ما هى ؟

هذا التصايُحُ المنكَر . هذا الضرب بحجارة النّرد . هذه الزحمةُ التى انغمسنا فيها . هذا المكان الهائج من حولنا . هذا كله خيال حقيقة فى رأسى . هى ، هى ، هى

فازعج المجنون الآخر ، ووقع فى تهاويل خياله . ونظر الينا تدورُ عيناه ، وتوجّس شرا ، ثم زاغ بصره الى الباب ، واستوفزَ وجمع نفسه للقيام ؛ فلما رأى صاحبُه ما نزل به ، قهقهَ وأمعن فى الضحك وقال : إنما خوّفتُـــه الصبيانَ والضرب ليثبت لكم أنه مجنون . . .

فَرِدَ الآخرُ واغتاظ وجعل يُتمتم بينه وبين نفسه .

قال «النابغة» ما كلامٌ تَظنّ به طنينَ الذبابة أيها الخبيث ؟

قال : « مما حفظناه » أن من علامات الأحمق أنه إذا استُنْطق تَجلّفَ ، وإذا بكى خار ، وإذا ضحك نَهَق . . . كما فعلت أنت الساعةَ تقول هاء ، هوء ، هيء . . .

فتغير وجه « النابغة » ، ونظر اليه نظرةً منكَرة ، وهمّ أن يقتحم عليه وقال : أيها المجنون . لماذا تضطرنى إلى أن أجيبك جواب مجنون . . . لا نجوت إن نجوتَ منى

فأسرع ا . ش . وأمسك به واعترض من دونه س . ع . وقال له : أنت بدأته والبادىء أظلم

قال : ولكن ويحه كيف قال هذا ؟ كيف لم يقل إلا هذا ؟ كيف لم يجد إلا هذا يقوله ؟ أنابغة القرن العشرين أحمق ، وقد أوْحـــدَهُ الله فى القرن العشرين ؟ لهمَمْتُ والله أن أكسرَ الذى فيه عيناه فما يقول إلا أنى أحمق القرن العشرين

* * *

قلتُ : إن كان هذا هو الذى أغضبك منه ، ففى الحديث الشريف : ليس من أحدٍ إلا وفيه حُمْقَةٌ ، فبها يعيش . والحياة نفسها حماقة منظّمة تنظيما عاقلا ؛ وما يُقبِل الانسان على شىء من لذاتها إلا وهو مقبلٌ على شىء من حماقاته ؛ وأمتعُ اللذة ما طاش فيه العقل وخرج من قانونه ؛ ولولا هـذا الحق فى طبيعة الانسان لما احتمل طبيعةَ الحياة . أليس يُخيَّل اليك أن أكثرك غائب عن الدنيا وأقلك حاضرٌ فيها ، وأن يَقظتك الحقيقية إنما هى فى الحلُم وما يشبه الحلُم ، كأنك خُلقتَ فى كوكب وهبطتَ الى كوكبنا هذا ، فما فيك له ولا فيه لك إلا القليلُ يلتئم بعضُه ببعضه ، وأكثرُكما مُتَنافر أو متناقض أو متراجع ؟

قال : بلى

قلت : فهذا القليل هو الحُمْقَةُ التى بها تعيش ، وهو أرضيّةُ الأرض فيـــك . أما سماويةُ السماء فبعيدةٌ لا تحتملها طبيعة الأرض . ولهذا يعيشُ أهلُ الحقيقة عيشَ المجانين فى رأى المغرورين الذين غرّتهم الحياة الفانية ، أو المخدوعين الذين خدعتهم الظواهر الكاذبة ؛ فكلما أتوا عملاً من الأعمال السامية انتهى إلى الحق ممكوساً أو محوّلاً أو ممدولاً به . ولعل هذا أصحُّ تفسيرٍ للحديث الشريف : أكثر أهل الجنة البُلْه

قال المجنون الآخر : « مما حفظناه » أكثر أهل الجنة البُلْه

فقال (النابغة) : المصيبةُ فيك أنك أنت هو أنت . ألا

(١) أى واسع العين أعجلها ، وقد مر وصفه فى المقالة الأولى

فلتعلمْ أنك من بُلَهَاء البيمارستان لا من بُلْه الجنة

قلت : ثم إن الموت لا بد آتٍ على الناس جميعاً فيسلبهم كل ما نالوه من الدنيا ويُلحقُ من نال بمن لم ينل ؛ فمنذا الذى يُسرُّ بأن ينال مالا يبقى له إلا أن يكون مروره من حماقته ؛ ومنذ الذى يحزن على أن يفوته ما لا يبقى له إلا أن يكون حزنُه حماقةً أخرى ؟ وأى شيء فى الحب بعد أن ينقضى الحبُّ إلا أنه كان حماقةً ضَرَبت فى الحواس كلها حتى ملأت النفس ؛ ثم ملأت النفس حتى فاضت على الزمن . ثم فاضت على الزمن حتى خيَّلت العاشق تخييلاً لذيذاً تصغر فيه الأشياء وتكبر ويجعل الواقع فى النفس غير الواقع فى دنياها ؟ يُشبِّه كلُّ عاشقٍ حبيبته بالقمر : فهب القمر سمع هذا وفهمه وعَنَاه أن يجيب عنه ، فماذا عساه يقول إلا أن يعجب من هذا الحمق فى هذا التشبيه ؟

* * *

فهدأ (النابغة) وسكن غضبُه وقال : صدقت ولهذا أنا لا أشبه حبيبتى بالقمر .

قلت : فبماذا تشبهها ؟

قال : لا أقول لك حتى أعلم بماذا تشبّه أنت حبيبتك .

قلت : وأنا كذلك لا أشبهها بالقمر

قال : فبماذا تشبهها ؟ قلت : حتى أعلم بماذا تشبه أنت ...

قال : هذا لا يُرضى منك وأنت أستاذ (نابغة القرن العشرين) ولك حبائبُ كثيراتٌ عدد كتبك ، وقد أعجبتنى منهن تلك التى فى (أوراق الورد) وأظنك أحببتها فى شهر مايو من سنة ... من سنة ...

قال المجنون الآخر : من سنة ١٩٣٥ ؛ هأنذا قد نبهتك

قال : ياويلك ! إن (أوراق الورد) ظهرت من بضع سنين ، إنما أنت من بُلهاءَ البيمارستان لا من بُله أوراق الورد ... ماذا كنت أقولُ ؟

قال ا . ش . كنت تقول : هذا لا يرضى منك ولك حبائب كثيرات .

قال : نعم لأنك إذا شبهت واحدة منهن بالقمر انتهى القمر وفرغ التشبيه فيظل الأخريات بلا قمر ... ثم إن كلمة القمر لا تعجبنى ، فلونها أدكنُ مُغبرٌّ[1] يضرب أحياناً الى السواد...

(١) الدكنة لون بين الحمرة والسواد

فاذا عشقتُ زنجيةً فهنا محلُّ التشبيه بالقمر . . . أما البيضُ الرعابيب فتشبيههن بالقمر من فساد الذوق

قال س . ع : وللألفاظ ألوانٌ عندك ؟

قال : لو كنتَ نابغة لأبصرتَ فى داخلك أخيلةً من الجنة . ألم يقل أستاذُنا آنفاً عن (نابغة القرن العشرين) إنه هبط من كوكب الى كوكب ؟ فتى كوكبنا الأول يكون لنا سمْعٌ ملوَّن وحسٌّ ملوَّن ، نسمع قرع الطبل أزرق ، ونفخ البوق أحمر ، ورنين النغم الحلو أخضر[1] ، والوجودُ كله صورٌ ملونةٌ سواءٌ منه ما يُرى وما يُحس وما هو مستخفٍ وما هو ظاهر

ثم أومأ إلى المجنون الآخر وقال : واسمُ هذا الأبله كلفظ الحبر لا أسمعُه إلا أسود ...

* * *

وسكت « النابغة » وسكتنا ؛ فقال له س . ع . مالك لا تتكلم ؟ قال : لأنى أريد السكوت . قال : فلماذا تريد السكوت ؟ قال : لأنى لا أريد أن أتكلم ...

وتحرك فى نفسه الغيظ من المجنون الآخر فرمى بعينه الفضاء ينظر اللاشيء وقال : إذا أصبح كلُّ النساء ذواتِ حلى أصبح هذا عاقلاً ... فدقَّ الآخر برجله دقاتٍ معدودة ؛ فثار (النابغة) وقال : من هذا يشتمنى ؟

قال س . ع . لم يشتمك أحد ، هذا خَفْقُ رِجلٍ على الأرض .

قال : بل شتمنى هذا الخبيث وسمى لا يَكْذِبنى أبداً ، وأنا رجل ظَنُونٌ أُسيء الظن بكلِّ أحد ، وعلامةُ الحازم العاقل سوء ظنه بالناس . فهبه كما قلت قد خَفَق بنعله أو خبط برجله فهو يعلم ما يعنى من ذلك وأنا أسمع مايعنيه . لقد طفح الشعرُ على قلبى فلا بد لى من هجائه ، ولا بد أن أذبحه ولو بالكلام ، فانى إذا هجوته رأيتُ دمه فى كلماتى ، وأريد أن أجعله كالعنز التى كانت عندنا وذبحناها

ثم انتزع قلم س . ع . وقال : هذه هى السكين . ولكن أسألك يا أستاذى أن تذبحه أنت بكلمتين وتصفَ له جنونه فقد

(١) هذا واقع وليس من الخيال فبعض الناس يسمعون الأصوات ويحسون الأشياء ملونة ؛ وعلماء الأمراض العصبية يعرفون هذا ويعللونه بأنه صور ذهنية قد لبسها مؤثر من المؤثرات فهو يصبغها بلونه . أفادنا هذه الفائدة دكتورنا محمد الراضى

عَزَب عني الشعر . إن خَفْقَة رجيل على الأرض تستطيرَ الأرانب فزعاً فيَنْفرن إلى أجحارهن ويَتَهارين ، وما كانت أبيات الشعر في ذهني إلا أرانب . . .

أنتم لا تعرفون أن من كان حَصيفاً نَبيهاً مثلي كان دقيق الحسّ ، ومن كان قَدْماً غبيّاً مثل هذا كان بليد الحسّ غليظاً كثيفاً . فاذا أنا استشعرت البردَ رأيتني قد سافرت الى القطب الشمالي ؛ أما هذا المجنون فهو إذا استشعر برداً سافر إلى عَباءته أو لحافه . . . . إذ هو لا يعرف جغرافيا ولا يدري ما طَحاها

قلت : هذا منك أظرفُ من نادرة أبي الحارث . قال : وما نادرةُ أبي الحارث ؟ وهل هو نابغة ؟

قلت : جلس يتغدى مع الرشيد وعيسى بن جعفر ، فأتي بخوان عليه ثلاثةُ أرغفة ، فأكل أبو الحارث رغيفَه قبلهما ، والرشيدُ ملكٌ عظيم لا يأكل أكلَ الجائع وإنما هو التشميتُ من هنا وهناك . فكان رغيفُه لا يزال باقياً . فصاح أبو الحارث فجأة : يا غلام ، فَرَسي . ففزع الرشيد وقال : ويلك مالك ؟ قال : أريد أن أركب الى هذا الرغيف الذي بين يديك . .

قال (النابغة) : ولكنّ فرقاً بين أبي الحارث وبين (نابغة القرن العشرين) ، فان من العجائب أني ربما نظرتُ الى الرجل وهو يأكل فأجد الشِّبَع حتى كأنه يأكل ليطعن لا ليطعَن . ولكن من العجائب أن هذا لا يتفق لي أبداً حين أكون جائعاً

أما هذا المجنون الذي أمامنا فربما أبصر الحمارَ على ظهره الحمْل فيشعر كأن الحمل على ظهره هو لا على ظهر الحمار . .

قال الآخر : « مما حفظناه » أنه سُرق لأعرابي حمار ، فقيل أُسرق حمارك ؟ قال نعم وأحمد الله . فقيل له على ماذا تحمده ؟ قال على أني لم أكن عليه حين سُرق . . فأنا إذا رأيتُ حمارا متقَلَ الظهر حمدتُ الله على أن الحمل لم يكن عليّ ، لا كما يقول هذا . ثم دقّ برجله دقّات . .

فاستشاط (النابغة) وقال : أسمعتم كيف يقول إني مجنون ، ثم لا يكتفي بهذا بل يقول إني حمار على ظهره الحمل ؟

قلت : ينبغي أن تتكافأ وهذا لا يعيبك منه ولا يعيبه منك ، فان من تواضع النوابغ أن يشعروا بيؤس الحيوان ، فاذا شعروا بيؤسه دخلتهم الرقةُ له ، فاذا دخلتهم الرقةُ صار خيالُ الحمل حملا على قلوبهم الرقيقة ؛ وقد يصنعون أكثر من ذلك . حكى الجاحظ عن عُمامة قال : كان (نابغة) يأتي ساقيةً لنا سَحراً فلا يزال يمشي مع دابتها ذاهباً وراجعاً في شدة الحر أيامَ الحر ، وفي البرد أيام البرد ، فاذا أمسى توضأ وقال : اللهمّ اجعل لنا من هذا الهم فرجاً ومخرجاً ؛ فكان كذلك إلى أن مات

قال المجنون الآخر : « مما حفظناه » ثمرةُ الدنيا السرور ولا سرور للعقلاء ، فلو لم يكن هذا أعقلَ العقلاء لما مُحق سرورُه في الدنيا هذا المحْق الى أن مات غمّاً رحمه الله

* * *

قال س . ع . قاعف الآن عن صاحبك ولا تذبحه بالهجاء

قال : لقد ذكرتني من نسيان ، وهذا المجنون يرى نسياني من مرض عقلي ، وكان الوجه لو تهدّى الى الحقيقة أن يراه شذوذا في العقل أي نبوغا عظيما كنبوغ ذلك الفيلسوف الذي أراد أن يعرف في كم من الزمن تسلق البيضة ؛ فأخذ بيده الساعة وبيده الأخرى بيضة ثم نسي نسيان النبوغ فألقى الساعة في الماء على النار ، وثبتتْ عينُه على البيضة ينظر فيها على أنها هي الساعة . ولو قد رآه هذا الأبله لزعمه مجنونا كما يزعمني ، فان المجانين يرون العقلاء مرضى بمواهبهم وأعمالهم التي يعملونها

وأنا فليس يهيجني شيء ما تهيجني كلمات ثلاث : أن يقال لي مجنون ، أو أبله ، أو أحمق . فمن رغب في صحبتي فليتجنب هذه الثلاث كما يتجنب الكفر والكفر والكفر ...

قال ا . ش . فاذا قيل لك مثلا . مثلا . أي على التمثيل : مغفّل ...

فك رأسه قليلا وقال : لا ، هذه ليست من قدري[1] ...

قلت : فبعض الكلمات إذا قُطعت عندك غيرت الحقائق ، كذلك القرن الذي قُطع فَرَد البقرة فرساً ؟

قال وكيف كان ذلك ؟

قلت : زعموا أن أعرابياً خرج إخوته يشترون خيلاً ، فخرج معهم فجاء بعجل يقوده . فقيل له ما هذا ؟ قال فرس اشتريته . قالوا : يا مائق هذه بقرة أما ترى قرنيها ؟

فرجع الى منزله فقطع قرنيها ثم قادها اليهم وقال لهم : قد أعدتها فرساً كما تريدون ...

قال (النابغة) هذا غير بعيد ، فقد رأيتُنا حين ذبحنا العنز

(١) نص عبارته (دى مش أدى) ...

وكسرنا قرنيها أعدناها كلبة سوداء ، فتقذرتها وعفت لحمها ولم أطعم منها

ثم أومأ الى الآخر وقال : هذا لا يدرى ما طحاها ، وهو مثل العنز نحسب قرنيها للقتال والسطاح ومنهما نمسك للذبح . فقل فى هذا يا أستاذ (نابغة القرن العشرين)

قلت للآخر : أيرضيك أن أقول فى المعنى لا فيك أنت ... ؟

قال نعم ، فكتبت هذه الأبيات على ما يريد النابغة :

قل لعنز ناطحاها ... لقتال سلحاها
مالها قد طرحاها ... فى يدين ذبحاها

* * *

شيمة منى نحاها ... عقل غر فلحاها
ليس يدرى ماطحاها ... بل يرى شمس ضحاها
حجرا مثل رحاها ... ويرى الليل نحاها
ظلما طالت لحاها

* * *

ومر (النابغة) وازدهى وجعل يقول طالت لحاها ، طالت لحاها ؛ وما كان هذا إلا السرور الأصغر ؛ أما سروره الأكبر فمجئ ساعى (البريد المستعجل) الى الندى وفى يده رسالة عنوانها : نابغة القرن العشرين فلان بندى كذا

وجعل الرجل يهتف بالعنوان يسأل عن صاحبه ؛ فتطاولت أعناق الناس ورفعوا أبصارهم ينظرون الى (نابغة القرن العشرين) وقد مد يده يتناول الرسالة وكأنه ملك من القدماء أسقط له كتاب بالفتح العظيم وبضم دولة الى دولته

ثم ترك الرسالة بين أصابعه يقلبها ولا يفضها ونحن فى دهشة من أمره ؛ فنظر فيها المجنون الآخر وقال له : هذا عجيب يا أخى كيف هذا ؟ إن هذا لا يصدق . إنك لم تتلقها فى صندوق البريد إلا منذ ساعة ... ...

(لها بقية) مصطفى صادق الرافعى

المبشرون : كتب الينا فاضل يذكر بعض سخافات المبشرين نقلها من أحد كتبهم وسألنا الرد عليهم فأبلغ الرد على هؤلاء تجنبهم وإهمال كل ما يكتبون إذ هم مصابون بجنون الفكرة الدينية ؛ ومثلهم فى كل ما يكتبونه عن الاسلام مثل رجل أمريكى (نابغة) ... يريد أن يقيم الدليل على أن الجمل العربى إنما هو مصنوع فى مصانع فورد ... ... الرافعى

٢ ـ الصقالبة فى الرواية العربية
وفى الدولة الأندلسية
للأستاذ محمد عبد الله عنان

— ٣ —

ونلاحظ أنه بينما كان نفوذ الصقالبة يقوى ويشتد فى بلاط قرطبة وفى الدولة الأموية فى الأندلس ، إذا بنفوذ الصقالبة يغزو بلاطا إسلاميا آخر ودولة إسلامية أخرى هى الدولة الفاطمية ؛ ومما يدعو إلى التأمل أن يزدهر النفوذ الصقلبى فى البلاط الفاطمى فى نفس العصر ، أعنى فى أواسط القرن الرابع الهجرى ، وفى ظروف مماثلة ؛ وقد قامت الدولة الفاطمية فى المغرب بمؤازرة القبائل المغربية القوية ، واستأثر زعماؤها مدى حين بمناصب الثقة والنفوذ ؛ ولكن تطورا وقع فى السياسة الفاطمية ؛ ومنذ عهد المعز لدين الله يغزو نفوذ الصقالبة البلاط الفاطمى ويغالب نفوذ المغاربة ؛ وقد كان جوهر الصقلى أعظم أعوان المعز وكبير قادته من أصل صقلبى ، وكان له فى الدولة وفى الجيش أعظم نفوذ ؛ وفى عهد العزيز سما نفوذ الصقالبة وساد فى القصر وفى الوزارة ؛ وبلغ ذروة قوته فى أوائل عهد الحاكم بأمر الله الذى تولى الملك صبيا وتولى الوصاية عليه صقلبى هو برجوان ؛ وفى عهد وصايته القصير سيطر الصقالبة على القصر والدولة ، واستأثر بمناصب النفوذ والحكم نفر من الفتيان الصقالبة مثل يانس وميسور وعين وغيرهم ؛ ولكن الحاكم لم يلبث أن تخلص من هذا النفوذ الخطر بمقتل برجوان ونكبة الفتيان الصقالبة ، وبذلك انهار نفوذ الصقالبة فى البلاط الفاطمى [1]

وكان ذلك فى أواسط القرن الرابع وفى أواخره حيث كان يزدهر نفوذ الصقالبة فى بلاط قرطبة فى عهد الناصر حسبما بينا ، ثم فى عهد ولده الحكم المستنصر من بعده . ولما توفى الناصر كان نفوذ الصقالبة أشد ما يكون بسطة فى القصر وفى الحكومة ؛ وكان فتيان القصر الصقالبة وهم المعروفون بالخلفاء الأكابر أول من أخذ البيعة

(١ المقريزى (مصر) ج ٣ ص ١٧ و ١٨ وج ٤ ص ٦٨